قصة قصيرة

مدينة على عين السماء

بقلم/ محمد على وهبة*

رياح و عواصف القلق تضرب رؤوسهم، و تبعثر ملامح وجوههم و نظرات عيونهم ، كأنهم يخشون ظهور شيء مفاجئ مخيف، لذلك أغلقوا بـــاب خـــيمة كبيرهم ، التي يجتمعون فيها إغلاقاً محكماً، وهم يجتمعون للمناقشة حول الكائنات الغريبة، التي تغزو المكان بين وقت و آخر، وهم يتســـاءلون : أهـــي نذير خير أم شر؟ لماذا تظهر و تختفي سريعاً؟ ما معنى الأصـــوات الصـــارخة الشـــبيهة بصرخات الاستغاثة، التي تطلقها أثناء ظهورها، وهي تنطلق في هواء الجو؟ يسطع فضاء الجو الفسيح من حولهم بضوء الشمس ، واللون الفضي الشفيف للنهار يمتزج بالهدير الصامت في حركة السحب، والسكون الخاشع غير المحدود لسماء مدينتهم الجديدة في قلـــب الصـــحراء ، ربما لذلك أحسوا بشيء من الهدوء، زاد إحساسهم بالارتـــياح مع افتتاح كبيرهم للجلسة، وهو يستعيذ من الشيطان ، ثم هو ينطق بالسملة، ومسافات الفضاء من حولهم تمتلىء بصوت إيقاعي ساطع نابع من دقـــات الدفوف، وهدير إيقاعها الجميل يرتفع و ينخفض

---

* أديب مصري من الإسكندرية يعالج القصة القصيرة، وقد نشر له منها كثير، و نال عليها الجوائز العديدة من جهات مختلفة.

بشـــكل ساحر بهيج، لبعث الحماس للعمل والإحساس بجمال الحياة وسط رمال و تلال الصحراء.

اكتست ملامح وجه كبيرهم بآثار القلق، وهو يخبرهم بأنه يود أن يتحدث إليهم حول بدء نجاحهم في إنشاء مدينة صحراوية نظيفة ، يمكن أن تكون نواة لمدينة فاضلة ، خالية من ملوثات البيئة ، التي زادت بشكل غـــير محـــتمل في المـــدن القديمة، كالأدخنة السامة ، والضوضاء المدمرة للأعصـــاب ، لكنه ظل مثلهم مهموماً بالغزو المفاجيء للكائنات الغريبة.

لذلـــك بقي صامتاً ، وهو يفكر للحظات ، ثم قال، وهم ينصتون في اهتمام- لم نكتشف بعد سبباً علمياً للظاهرة ! و أضاف ، وآثار القلق لا تزال بادية على ملامحه:

- مـــا يبعـــث عـــلى عدم الاطمئنان أننا نواجه بوادر مفاجئة للعدوان! وصمت قليلا، ثم قال:
- لذلك كانت دعوتناللإكثار من الصيام.واتخذت ملامح وجهه شكلا انطلاقيا، وهو يضيف قائلا:- فالصيام كما تعلمون هو السبيل إلى المعرفة الكبرى. قال أحدهم:
- لدى اقتراح لمواجهة الكائنات الغريبة.

وواصل كلامه قائلا:

- نستطيع زيادة الأسيجة الدفاعية حول المدينة.

أيده آخر بقوله:

- يمكننا تزويد هذه الأسيجة بأسلحة السيالات المغناطيسية.

أضاف ثالث قائلا:

- نستطيع بذلك أسرهادون قتلها.

قال رابع:

- يساعدنا ذلك على إجراء الدراسات العلمية اللازمة عليها.

ابتسم كبيرهم، وهو يقول:

- ذلك متوقف على معرفتنا للمكان الذي تأتي منه!

ثم قال وهو يفكر:

- فقد يكون موطنها داخل مدينتنا وليس خارجها!

انقطع حديثهم فجأة مع ارتفاع أطراف باب الخيمة ببطء، ثم بشدة، وانقذافها بصوت ساحق مكتوم فوق ظهرها، وانقذاف حزمة من ضوء الشمس، مختلطة بموجة هادرة من هواء الصحراء المحمل بالغبار إلى داخلها، مما أثار فيهم الفزع للحظات، لكنهم أحسوا بالارتياح مع ظهور زوجة كبيرهم أمامهم، بردائها الفضفاض، وقامطة شعرها اللامعة، خضراء اللون، وهي تقول في لهجة لاهثة:

- عفوا لقطع حديثكم...

وابتلعت ريقها، وعيناها تتسعان، وأسارير وجهها تنتفض بالسرور، ثم قالت:

- أمسكنا بواحد من الكائنات الغريبة!

أصيب جو الخيمة بارتباك بهيج، مع وقوف كبيرهم، ثم وقوفهم جميعا مشدودين، مندهشين.

- كيف؟!وأين؟!

- أمسكنا به عند خيمة محو أمية الجدات.. نقلناه إلى خيمة البحث العلمي. خرجوا مهرولين على الطريق الممهد الجميل، المفتوح على السماء الرحيبة، المحاط بأشجار مزهرة مثمرة على جانبيه، ولهفتهم تسابق خطواتهم، وهم يتهيأون بكل إحساسهم لمعرفة أسرار الكشف الجديد، وصوت دقات الدفوف يبدو أكثر وضحا في مسافات الفضاء، بشكل يبعث على الإحساس بالحماس للمواجهة مع أية مفاجآت.

بدأت تظهر قطاعات كبيرة من مساحات صحراوية واسعة من حولهم، وجانب كبير منها مغطى بلون كساء الزرع الأخضر والأشجار والثمار والورود، ومحاطة- على إمتداد البصر- بأبراج طاقة الرياح، وأشرعة خلايا الطاقة الشمسية، وصفوف طويلة من أبنية أنيقة، مزودة بالكهرباء المتولدة من طاقة الشمس والرياح، يجري العمل في إنشائها بأشكال ونقوش عصرية وتاريخية خالية عند حواف الأحواض الزراعية.

- وكيف أمسكتم به؟!

قالت وهي تسير إلى جوارهم، وتدير وجهها جنبا، لتتفادى ضربات الريح المحملة بالغبار:

- كنت أمهد للدرس الأول مع الجدات...

وقالت وهي تلملم أطراف ردائها تحت عصف الريح:

- قلت لهن: ستتعلمن كيف تقرأن الكتاب.. وتسهمن في تنشئة الصغار كما يجب. وواصلت كلامها بلهجة مضطربة، وهي تبصق بعض ذرات الغبار التي تسللت إلى فمها:

فوجئـــنا بظهوره.. كان لونه مائلا للسواد.. يشبه كرة طائرة معلقة أمامنا في الهـــواء.. لا يكـــف عن إطلاق صيحاته المستغيثة.. أحسنا بالفزع في البداية .. وأطلقت بعض الجدات الصرخات.

عاد صوتها للهدوء، وهي تقول:

- شـــعرنا بالارتياح عندما جاء أحد العاملين من خيمة البحوث.. وأطلق عليه سيالات جهاز الجذب المغناطيسي.. فأوقعه أسيرا!

- مروا أثناء سيرهم بخيمة الشعراء. وكان بها جمع حاشد منهم. رنا إلى سمعهم بضع كلمات من قصيدة جميلة، يلقيها أحدهم.

مانح الحب كائن كوني يرتقي عرش الوجود

ارتسمت بسمة واسعة على شفاههم وهم يطربون لإيقاعها البديع.

اتسعت بسماتهم أكثر، وهم يمرون بخيمة المقامات العصرية. رأوا بها حشدا مماثلا، وكان أحدهم قائما بينهم، يلقي بإحدى مقاماته. سمعوا مقطعا منها وهم سائرون.

عندما رأي بهاء وجهـــهـــــا
ظل مشدود القلـــــب نحوهـــا
وامتلأ بفيض النور إلى منـــتهاه
وكان يهفـــــو للسجـــود لله

رأوا أثناء سيرهم امرأة عجوزا تتجه نحو خيمة محو أمية الجدات، تـــتوكأ عـــلى عصا، وهي تتحرك ببطء، وظهرها مائل للانحناء، وتكثر التجاعيد والحوافير اللحمية في وجهها وعنقها وحول عينيها، وتبدو نحيلة

هزيلة، لكنها برغم ذلك كانت تسير بخطوات متماسكة، متوهجة بأسرار جمال القوة المثيرة للإحساس بالأنفة حين يتمتع بها كبار السن.

أصـــابهم الذهول عندما رأوها تتعثر في حجر بارز، وتقع أمامهم على الأرض، فهرولوا جميعا نحوها، واجتمعوا سريعا حولها، استندت على أذرع بعضهم حتى اكتمل وقفها، وهم يراقبون أنفاسها المتقطعة المتوجعة.

سألتها زوجة كبيرهم:

- أأصابك شيء يا أم.؟

سألها آخر بلهجة متلهفة:

- أنحضر لك طبيبا؟

قالت وعيناها الرقيقتان تتسعان:

- لست مريضة!

سألها كبيرهم باللهجة المتلهفة نفسها:

- أنجلب لك كوب ماء؟

صاحت وهي تستجمع قواها قائلة:

- إني صائمة!

سألها مندهشا:

- لماذا؟!

و أضاف متسائلا:

- أليس صعبا عليك؟!

قالت وهي تهز رأسها، وملامح وجهها تنكمش بشدة:

- لا ليس صعبا!

ثم قالت مبتسمة:

- ما دمت قادرة.. فلما ذا لا اصوم معكم من أجل الخير.

تـــركوها بعد ذلك، وهم يبتسمون لها، ونظرات عيونهم مشحونة بأحاسيس الدهشة والإعجاب، وهي تستأنف سيرها البطيء، وهم يدعون لهـــا بالصـــحة والعافية، وهي تمطرهم بدعائها لهم بالخير والتوفيق في كل شيء. وواصلوا سيرهم مسرعين، ليلحقوا بالمفاجأة التي تنتظرهم، يملأهم الشعور بالبهجة والراحة والاطمئنان. وكانت جدران الدفاع الإليكترونية العالية، المضروبة حول مدينتهم، قد بدأ يظهر جانب كبير منها، تبدو كأنها تطـــاول عـــنان السماء، مما زاد من إحساسهم بالهدوء والاطمئنان، وهم يتأملونها في شموخ عليائي مهيب.

وصـــلوا إلى خـــيمة بحوث الصحراء. رأوا أعضاء فريق البحث العـــلمي العـــامل بهـــا يقفون عند بابها، يتحدثون. بعد أن ألقي كبيرهم بالسلام، تساءل متلهفا:

- أين الكائن الغريب؟

ابتسم كبير الباحثين، وهو يقول:

- اختفى سريعا

ثم قال مصححا إجابته:

- إنه ليس كائنا واحدا.. إنما مجموعة من ملايين الكائنات الدقيقة. وأشرق وجهه ببسمة واسعة، وهو يشرح لهم وجهة النظر العلمية حولها، بـــأن الواحدة منها لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة من فرط صغر حجمها، وهي تسبح في الهواء، لكنها تتجمع وتتكتل بالملايين والمليارات، حتى تأخذ

شـــكل الكـــرة، وتبدو كأنها كائن واحد متوحد، ربما لتحمي نفسها من ملوثـــات البيئة في المدن القديمة. وإنها تتفكك وتنفصل عن بعضها عندما تشعر بالأمان بعد وصولها إلى نقاء البيئة في قلب الصحراء.

ظلـــوا ينصـــتون إلـــيه، وهو يواصل حديثه العلمي المثير، وخلاء الصحراء الفسيح المحيط بهم يبدو ساطعا تحت وهج الشمس بنقاء وصفاء مســـافاته القريبة والبعيدة، كأنه في صلاة خاشعة، ونقاؤه الهادئ العميق يتمدد بالتسابيح من مساحات الأرض الشاسعة على أعماق الصفاء المتمدد بلا انتهاء في مسافات السماء.

***